التمهيد

أبوبكر بن شهاب

النشأة والتكوين

١- النشأة والتكوين :

يتفق مؤرخو الأدب ونقاده في الوطن العربي على أن قوة الشعر وازدهاره أخذت بالانحدار منذ سقوط بغداد (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) نتيجة لتغير نظام الحكم العربي، وسيطرة المماليك والعثمانيين على العالم العربي والإسلامي، مما جعل من غير المعقول في هذه الحقب المظلمة التي توقف فيها الحراك الثقافي؛ أن تجد في أي بلدٍ عربي شعرًا يغذي الروح، ويمتع الشعور، ويمنح قارئه لذة فنية، فقد أصبح الشعر أقرب ما يكون إلى اللغو ولم يعد الشعراء يعبرون عن حياتهم وعواطفهم، وإنّما يعبرون عن زخارف البديع اللفظية[١]، فجاء الإبداع الفني مجرد "تقليد متزمت لا أثر فيه لشخصية الشاعر ووجدانه، وأصبح الشعر مجرد صنعة متكلفة وزخارف لفظية لا غناء فيها"[٢] بما أحاله "إلى نظم لا روح فيه ولا معنى له والذي يساق في عبارةٍ ركيكة غثة، وفي حشد زاخر من الزينات والمحسنات تستر عواره"[٣]، ولقد استمر هذا الركود حتى كانت النهضة الأدبية والفكرية التي حصلت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر من خلال الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م بقيادة نابليون بونابرت[٤]، إذ كان لها تأثير شامل "بما اصطحبته من عوامل النهضة وما نتج

(١) فصول في الشعر ونقده، د/ شوقي ضيف، ط٢، دار المعارف، ١٩٧٧م، ص٢٨١.
(٢) الغزل في الشعر العربي الحديث، د/ سعد دعيبس، ط٢، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٤٧.
(٣) في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، ط٧، دار الفكر العربي، القاهرة مصر، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)، (١/ ١٦٥).
(٤) ينظر: فصول في الشعر ونقده، ص٢٥٧، وفي الأدب الحديث، (١/ ١٦٥).

عنها من يقظة ثقافية وحضارية، تجلّت أدبيًا في إحياء التراث العربي القديم بعد فترة انقطاع دامت أكثر من سبعة قرون"[١]، لقد حملت معها كثيرًا من مظاهر المدنية الحديثة التي تعد من العوامل المهمة التي حركت الشعر العربي باتجاه الإحياء والتجديد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تمثلت في إنشاء مكتبة عامة وتأسيس المجمع العلمي والطباعة والصحافة والمدارس والبعثات التي تزودت من علوم الغرب، والترجمة وما قدمته من خدمة جليلة في كافة فنون المعرفة، وظهور الوعي السياسي والمطالبة بالتحرر والاستقلال من التبعية للدولة العثمانية، والتي أسهمت جميعها في نهضة الأدب في مصر[٢]، لقد تحقق اتصال فكري بالغرب وحضارته أثّر إيجابًا في مستوى التطور الشعري من جهة، وأدى إلى حصول اتصال بالتراث فظهر ما سمي -في التاريخ الأدبي- بحركة الإحياء والبعث في الأدب العربي والتي عمل روادها على إخراج القصيدة من تكوينها وتقليديتها والارتفاع بها من درك الانحطاط الفكري والفني الذي وصلت إليه خلال الحكم العثماني[٣] مما ساعد على تنشيط حركة العناية بالتراث وإحياء القديم من كتبه فطبعت نفائس كثيرة منها، فقد رأى رواد النهضة أنه لا حياة للغة العربية وآدابها إلا بالاتصال بالآداب القديمة[٤]، إن الظروف الصعبة التي مرت بها الأمة العربية في قرون

---

(١) التحديث في الشعر اليمني (١٩٥٥، ١٩٠٠م) عبد المطلب جبر، مجلة اليمن، مركز البحوث والدراسات، جامعة عدن، ع ١٤ شعبان ١٤٢٢هـ - نوفمبر ٢٠٠١م، ص٨١.

(٢) ينظر: في الأدب الحديث، (١/ ١٧، ٢٠، ٢٤).

(٣) ينظر: التحديث في الشعر اليمني، ص٨١.

(٤) ينظر: أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، على حداد، ط١، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٩، وينظر مصدره.

الانحطاط وما صحبها من تخلف وجهل وانغلاق وركود هي التي فرضت عليها أن تبعث من جديد بعد أن رأت الهوة الواسعة بينها وبين الدول التي قطعت شوطًا مهمًا في التطور والرقي مما حدا بعددٍ من مثقفي الأمة كلاً في مجاله أن يبعثوا الحياة في عروقها، فكان من أبرز الرواد في النهضة الأدبية في الوطن العربي ومصر محمود سامي البارودي الذي حمل راية التحرر في الشعر فأعاد له رونقه وبهاءه(١)، ثم جاء من بعده أحمد شوقي(٢)، الذي أصبحت له إمارة الشعر لا في مصر وحدها بل في الوطن العربي كله. وفي العراق نجد كوكبةً من الشعراء حملوا الراية ذاتها منهم جميل صدقي الزهاوي ومعروف عبدالغني الرصافي(٣)، لقد أمسك هؤلاء بخيط التواصل مع الموروث الشعري حيث انقطع عند عصوره الزاهية وآخرها العصر العباسي، وكانت هذه العودة ضرورية كيما يأخذ الشعر العربي نهجه السليم في التطور(٤)، أما اليمن فلم تكن بمعزلٍ عمّا يجري حولها، فعلى الرغم من العزلة، وبعدها جغرافيًا وتخلفها إلا أنها شهدت نوعًا من الحراك الأدبي متأثرة بغيرها من الأقطار العربية، بيد أن بعض الباحثين اليمنيين ينفي أن يكون الشعر في اليمن قد عرف ماسمي بعصر الانحطاط الأدبي كما عرفته الأقطار الأخرى في العالم الإسلامي فهو- أي الشعر اليمني- "لم يصل إلى الانحطاط الذي وقع فيه الأدب العراقي تحت الزحوف التترية، أوالأدب المصري تحت الزحوف الصليبية، وإنّما اشتركت كل الثقافات العربية في الذبول تحت الطربوش التركي إلا أن معاهد الأدب اليمني كانت بمنأى عن

(١) ينظر: فصول في الشعر ونقده، ص٢٨٤. (٢) المصدر نفسه، ص٣٣١.
(٣) ينظر: أثر التراث في الشعر العراقي الحديث، ص٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١.

مراكز السلطة العثمانية"[١]، وظل الشعر اليمني في هذه الفترة ومن خلال هذا العصر المتأخر في حاله تأرجح، ففي القرون السابع والثامن والتاسع الهجرية ظل الشعر "رصينًا متماسكًا لم ينحدر أو يلحق به الإسفاف أوالركاكة ثم تراجع في القرن العاشر وخبت جذوته وذوت طراوته وغلبته البهارج الشكلية"[٢]، وفي القرن الحادي عشر الهجري عاد إلى قوته ورصانته إذ نجد "من يعيدنا بصفاء ديباجته وطراوة شاعريته إلى الشعر العربي وإشرقاته في عصوره الزاهية"[٣]، فظهر الشاعر عبدالصمد باكثير ت (١٠٢٥هـ) "شاعر حضرموت الأول وأخصب الشعراء شاعرية، وأغزرهم مادة شعرية، وأقدرهم على التصوير الشعري والتحليق والوصف"[٤] وبرز أيضًا الشاعر الحسن بن جابر الهبل ت (١٠٧٩هـ) الذي "مثل بئيته الشعبية من جهة، ومد عهد الفحولة من جهة ثانية، فهو امتداد (للشريف الرضي) أو (مهيار) ولا يشبه شعراء عصره البديعيين"[٥] فكان لهذين الشاعرين فضل كبير إذ أنه قد تحقق على يديهما الازدهار والانتعاش في اليمن، وفي القرن الثاني عشر الهجري استمر هذا الإبداع الشعري مع بعض الإسفاف في الأسلوب بتأثير البديعيات والزخارف والأحاجي وحساب الجمل على حساب المضمون ورصانة

(١) قضايا يمنية، عبدالله البردوني، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٨١.
(٢) رائد النهضة الشعرية في اليمن أبوبكر بن شهاب، عمرعلوي بن شهاب، مجلة اليمن، ع٦، مايو ١٩٩٩م، ص٥٠.
(٣) التحديث في الشعر اليمني (١٩٠٠-١٩٥٥م)، ص٨٢.
(٤) الحركة الأدبية في حضرموت، عبدالقادر محمد الصبان، ط١، دار حضرموت للدراسات والنشر (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص٨٨.
(٥) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، عبدالله البردوني، ط٥، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥، ص٥٠.

التعبير[1] ومن أبرز شعراء هذه الفترة أحمد بن أحمد الإنسي (الزنمة)، ت (١١١٥هـ) وعبدالله بن علوي الحداد ت (١١٣٢هـ) وعلي بن محمد العنسي ت (١١٣٩هـ) ومحمد بن إسحاق ت (١١٦٧هـ)، ولقد أطلق أحد الباحثين على هذه المرحلة من تطور الشعر في اليمن "عهد الاجترار"[2]، نتيجة لكثرة المحسنات التي أصبحت دليل البراعة الشعرية، ولكنه يذهب إلى القول بأن هذه الصناعة لم تحجب الأصالة الفنية[3]، ورأى أن شعر هذه الفترة "ينتمي إلى الفحولة الجاهلية لغة، ويختلف عنها رؤية وغرضًا"[4]، وتستمر هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري إذ تنامى التطور الشعري بإطلالة "إشعاعات البعث والإحياء في الشعر اليمني ممثلة في شاعر اليمن ورائد النهضة الشعرية فيها أبي بكر بن شهاب العلوي"[5]، الذي ارتفع بالشعر ونهض به وأخرجه من الصنعة إلى فضاء الشعر الرحب.

٢- نسبه :

وابن شهاب : هو أبو بكر بن عبدالرحمن بن شهاب الدين العلوي الحضرمي[6] من أسرةٍ ذات جاهٍ ونسب قديم تنتمي إلى آل بيت الرسول ﷺ

---

(١) رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥٠.
(٢) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه، ٤١.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦.
(٤) قضايا يمنية، ص٢٨٣.
(٥) رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥٠.
(٦) ينظر نسبه: مقدمة الديوان، دار التراث اليمني، صنعاء، ط٢، (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص٨ وتاريخ الشعراء الحضرميين، عبدالله بن محمد السقاف، مطبعة العلوم، ١٣٥٣هـ، (٤/ ١٨٣) وأدوار التاريخ الحضرمي، محمد بن أحمد الشاطري، ط٣، دار المهاجر للنشر والتوزيع، المدينة المنورة (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، ص٤٤٩، نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، محمد بن محمد زباره، ط١، مركز الدراسات والبحوث اليمنية، صنعاء، ١٩٧٩م، (١/ ٣٣).

تميزت بالعلم والصلاح والأخلاق الفاضلة والكرم، مما جعل ابن شهاب يعتز بنسبه الشريف ويفتخر به كثيرًا في شعره[١]، والفخر بالحسب والنسب ومكارم الأخلاق سمة من سمات الشعراء قديمًا وحديثًا[٢]، غير أنه تجاوز الحد وبلغ درجة عالية في التعصب للجنس بتفضيله آل البيت على من عداهم[٣]، ولقد اشتهرت أسرته بالعلم والرئاسة في حضرموت، بوصفها حالة اختص بها البيت العلوي من خلال التأثير الروحي في جميع فئات الشعب وطبقاته، فأبوه عبدالرحمن بن محمد بن شهاب الدين "من أرباب الفضل والعلم والأدب ومن أعيان تريم وكبار السادة العلويين فيها"[٤]، كان مولعًا بالهجرة والتطواف، واستوطن مع أسرته (حصن آل فلوقه) من ضواحي تريم ويعود السبب إلى مغادرة مدينة تريم "لكثرة ما لاقاه من أنواع الاضطهاد فيها"[٥]، ووصف بأنه شاعر المهجر الأول نتيجة لكثرة شعره فيه وذمه "إذ لا نجد تلك الكثرة من القصائد في المهجر وذمه عند من سبقه من الأدباء"[٦]، واشتهر بقوله الشعر الفصيح والحميني. وتكاد تحجم المصادر عن ذكر شيء عن والدته، ولكننا نذهب إلى أنها من الأسرة ذاتها والذي يدعونا إلى هذا الرأي ما اشتهر به العلويون في حضرموت من الزواج فيما بينهم، وهي سمة من سماتهم التي تميزوا بها. أما إخوته فلم تذكر لنا المصادر منهم سوى أخيه الأكبر عمر الملقب بالمحضار العابد الفقيه الورع

(١) ينظر: الديوان، ص٤٠ و١٥٤.
(٢) ينظر: في الأدب الحديث، (١/ ١٧٦).
(٣) ينظر: الديوان ص٩٧ وما بعدها.
(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين، (٤/ ٤٦).
(٥) ابن شهاب ومحاكاة الأنماط الصنعانية، عبدالرحمن محمد الحبشي، مجلة اليمن الجديد، ع٨، السنة السابعة عشرة (١٤٠٥هـ محرم - أغسطس ١٩٨٨م)، ص١٠٢.
(٦) المصدر نفسه، ص١٠٥.

الزاهد والذي يعد أحد شيوخ الشاعر الذين تلقى على يديهم العلم[١]. أما الأولاد فقد رزق ولدين أحدهما يدعى عليًا، ونفهم مما جاء في مقدمة ديوانه أنه توفي قبل والده لأنه خلف بنتين، والآخر مرتضى وكان يكنى به، ورزق من البنات أربعًا، أما زوجاته فإننا نذهب إلى أنه قد تزوج بأكثر من واحدة، إحداهن ونظنها الأولى، توفيت في حياته وقد رثاها بقصيدة نتبين من خلالها شدة حبه لها وتعلقه بها[٢]، والثانية نظن أنه تزوجها في الهند محل إقامته كما ورد ذلك أيضًا في الديوان[٣].

٣- ميلاده ونشأته :

ولد ابن شهاب سنة (١٢٦٢هـ - ١٨٤٦م)، بإحدى قرى ضواحي تريم، والمسماة (حصن آل فلوقه)، ونشأ وتربى في حجر والده وأخيه الأكبر عمر حيث تلقى على أيديهما دروسه الأولى، قبل أن ينتقل إلى كتّاب المعلم الصالح باغريب، إذ تعلم القراءة والكتابة فيه. ولقد قضى أيام الصبا وعنفوان الشباب في طلب العلم وتحصيله في وطنه حضرموت على يد كبار علمائها وشيوخها والذين يتجاوز عددهم المائة[٤]، ومن أشهرهم بعد أبيه وأخيه شيخه علي بن محمد الحبشي، وعبدالرحمن بن محمد المشهور[٥]، واتصف بالذكاء الذي "كان يعتمد عليه أكثر مما يعتمد على اجتهاده"[٦]

---

(١) ينظر: مقدمة الديوان، ص٨، وأدوار التاريخ الحضرمي، ص ٤٥٢، ونزهة النظر، ص٣٣.
(٢) الديوان، ص٦٦. (٣) المصدر نفسه، ص١٢.
(٤) ينظر لمعرفة شيوخه: مقدمة الديوان، ص٩ وتاريخ الشعراء الحضرميين، (٤/ ١٨٤).
(٥) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٤٩- ٤٥٠.
(٦) المصدر نفسه، ص٤٤٩.

تجلّى ذلك في أرجوزته في الفرائض والتي سماها (ذريعة الناهض في علم الفرائض) جمع فيها الفن كله في أربعة وعشرين بيتًا وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره يقول فيها معتذرًا :

وعذر من لم يبلغ العشرينا يقبل عند الناس أجمعينا[1]

هذا النبوغ المبكر قدمه على أقرانه وجعله "يبرع في فنون عديدة، حتى أدهش فضلاء مشايخه مما جعله يستقل بالتدريس والإفتاء وهو صغير وله فتاوى وتعليقات في صغره"[2]، ويمكن عدّ هذه المرحلة من حياته مرحلة التكوين والتأسيس لأنه تزود بثقافة عصره التقليدية، والتي تقوم على حفظ القرآن والسنة، ودراسة الفقه، وعلوم الشريعة، واللغة، والنحو، والأدب، وغيرها، غير أنه كان طموحًا ذا نفسٍ تواقة إلى معالي الأمور، فلم يطل به المقام في وطنه حضرموت، وبما جبل عليه من حب الترحل والهجرة كغيره من أبناء حضرموت، فقد كانت رحلته الأولى إلى الحجاز وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره سنة

(١٢٨٦ هـ - ١٨٦٧م) وقصده الحج وطلب العلم "فحج واتصل بعلماء الحجاز وكبرائها ثم عاد إلى تريم"[3]، وممن اتصل بهم في رحلته هذه (فضل باشا العلوي) ومدحه بقصيدةٍ[4]، كما التقى بمفتي مكة (أحمد زيني دحلان) واستمرت العلاقة بينهما، فكانا يتبادلان الرسائل وهو واضح من القصيدة التي بعث بها إليه مادحًا إياه قبل وفاته بسنة[5]، وممن التقى بهم

(١) ينظر: مقدمة الديوان، ص١٠، وأدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٤٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٠.
(٣) أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٦.
(٤) ينظر: الديوان، ص٧٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٥٩.

أيضًا في رحلته هذه شريف مكة (عبدالله باشا عون) ومدحه أيضًا بقصيدة[1]، وكان السبب الرئيس لرحلته الثانية والتي تمت سنة (١٢٨٨هـ-١٨٦٩م) تجاريًا إذ بدأ بعدن ولحج، ومدح حكامها وأمراءها العبادلة[2] وطاف عددًا من المدن اليمنية، ثم اتجه إلى الشرق الأقصى حيث إندونيسيا، فاشتغل بالتجارة، وكلّلت أعماله بالنجاح، فعاد إلى وطنه سنة (١٢٩٢هـ - ١٨٧٣م) وفي هذة الفترة التي قضاها في وطنه حضرموت مارس دورًا كبيرًا في الحياة العامة، فقام بالتدريس، والإفتاء، والدعوة، والإصلاح، غير أن المقام لم يطل به، فرحل من تريم رحلته الأخيرة سنة (١٣٠٢هـ - ١٨٨٣م)، وهو أمر يستوقف الدارس ويدعوه إلى مناقشة أسبابه والتي يمكن أن يكون لها سببان أحدهما : سياسي فقد عارض ابن شهاب اتفاقية الحماية بين بريطانيا وحكام حضرموت بجعلها قاعدة حربية ضد الأتراك، ورفض ما عُرضَ عليه من مال وسلطة وقال: "إني أخاف الله وأحترم شرفي وشرف أمتي وآبائي وأجدادي الذين يرقدون في هذه البقاع الطاهرة"[3]، مما جعله "يعاني من أذى الحساد والأضداد وكيدهم، وكان جلّه بإيعاز من الحكومة البريطانية لموقفه منها إبان توقيع معاهدتي الحماية والاستشارة مع سلاطين حضرموت"[4]. أما الثاني فديني: إذ أظهر بعض الآراء والأفكار الدينية التي تناقش بعض المراحل والشخصيات في التاريخ العربي الإسلامي مخالفة لما هو شائع في حضرموت اتسمت بالجراءة والصراحة مما أقام عليه معظم فقهاء حضرموت وصوفيتها وعدّوا هذه الآراء

(١) المصدر السابق، ص١٦٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٨ وص ٢٢٠.
(٣) أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٢.
(٤) رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥١.

والأفكار تتسم بصفة البدعة والرفض[١] وهي أراء مبثوثة في ديوانه حيث قالها ابن شهاب عن اعتقاد جازم.

لقد اشتهر ابن شهاب بما له من علم وفقه جعله يتقدم على أقرانه ويتصدر المجالس ويحوز على إعجاب العامة وحبهم، فضلاً عن عدم تهاونه في قول الحق أو مهادنته، وإنكاره للأفكار التي يرى أنها مخالفة للشرع، مما جعل الوشاة والحساد يتكالبون عليه ويجدونها فرصة لمضايقته[٢] وهو ما دفعه إلى أن يغادر حضرموت، ولقد صرح بهذا كثيرًا في كتبه وشعره، من مثل قوله :- "ويعذرني تشتت بالي بمفارقة الأولاد والربوع، و والله ما تجشمت أليم عذاب الاغتراب عن الأوطان إلا بعد أن تكسرت فيّ نصال سهام حسد القرابة والأقران"[٣] كما نجده أيضاّ يذكر أذية الأجناد له[٤]، وهو ما يدل على موقفه السياسي، أما شعره فصرح فيه كثيرًا بما لاقاه من أذى وحسد من مثل قوله :-

وقد مسني من أهل بيتي وبلدتي أذى وكثير منهم أكثروا العدوا[٥]

---

(١) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥١.

(٢) ينظر: معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، العلامة عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، وعبدالرحمن بن حسن السقاف، ط١،مكتبة الإرشاد، صنعاء (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص٤٤٧.

(٣) نوافح الدرر الجوري بشرح عقيدة الباجوري، أبوبكر بن شهاب، طبع مطبعة فخر نظامي، دت، ص ١٣٣.

(٤) ينظر: فتوحات الباحث بشرح تقرير المباحث، أبوبكر بن شهاب، ط١، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد، ١٣١٧هـ، ص٢٦٤.

(٥) الديوان، ص٢٥ وينظر: ص١٢١.

وتجول - في رحلته الأخيرة هذه - في كثير من البلاد كعدن، ولحج، والحجاز، ومصر، والشام، والإستانة عاصمة الدولة العثمانية، التي بايع سلطانها عبدالحميد ومدحه بقصيدة[١] يثبت من خلالها أن الولاء يجب أن يكون للخلافة، ولقد سبقته إلى هناك شهرته العلمية والأدبية وموقفه السياسي مما حدا بالسلطان أن "يقلّده النيشان المجيدي المرصع وأهدى له سيفًا"[٢]، وفي ذلك ما يدل على منزلة ابن شهاب عند السلطان عبدالحميد العظيمة، غير أنه آثر الإقامة في (حيدر أباد الدكن) بالهند، واستقر بها وأصبح مقربًا من ملكها (مير عثمان علي خان) الذي مدحه بعددٍ من غرر قصائده[٣]، كما مدح وزيره[٤]، وكلف بالتدريس في مدرستها النظامية على كره منه، فلقد كان يأمل أنه يعطى منصبًا أرفع إذ إنه كان طموحًا وهو ما كشفه في قصيدته بعد تكليفه بالتدريس[٥]، واستمرت إقامته في حيدر أباد الدكن عشرين عامًا وفي عام (١٣٣١هـ- ١٩١٢م) عاد إلى تريم، واستقبل بحفاوة حيث خرج لاستقبال موكبه أبناء وطنه فرحين مستبشرين، وفي عام (١٣٣٤هـ- ١٩١٥م) عاد أدراجه إلى الهند لتصفية شئونه ومتعلقاته، لكن حالت دون رجوعه ظروف الحرب العالمية الأولى فبقي هناك حتى وفاته في سنة (١٣٤١هـ - ٢٩/ ٢/ ١٩٢٢م) بحيدر أباد الدكن[٦].

إن المتتبع لحياة ابن شهاب يجد أنه مرّ فيها بمراحل عدة فهناك مرحلة التكوين والتأسيس في تريم إذ تلقى تعليمه الأولي فيها، فحفظ القرآن الكريم،

---

(١) الديوان، ص٢٠٤. (٢) المصدر نفسه، ص١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٣ وينظر: الصفحات ١٠٩، ٢١٧، ٢٢٧.
(٤) المصدر نفسه، الصفحات١٨٠، ١٤٣، ٢٠٩.
(٥) المصدر نفسه، ص١٩٧. (٦) المصدر نفسه، ص١٢.

ودرس الحديث، وأصول الدين، وعلوم الفقه، واللغة، والنحو، والأدب، وهناك مرحلة الانتقال التي تنقل فيها داخليًا وخارجيًا طلبًا للعلم والتجارة، أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة النضج الفكري والثقافي والتي شهدت عطاءه الشعري والفكري فألف كثيرًا من الكتب ونشر كثيرًا من شعره.

٤- مقومات التأسيس المعرفي لشخصيته :

لكل شخصية مقومات تؤسس لها معرفيًا وثقافيًا، وتؤثر سلبًا أو إيجابًا في تكوينها فتحدد سلوكياتها وسماتها العامة، لأن هناك مميزات أساس لتشكلها، فكل فرد يختلف في شخصيته عن الأفراد الآخرين رغم تشابههم في بعض النواحي بسبب نشأتهم في ثقافة واحدة مشتركة، ووجود علاقة ديناميكية بين الفرد وبيئته ممّا يجعل (الشخصية) شيئًا مكتسبًا، كما أنها تمثل الشكل الفريد الذي تنتظم فيه استعداداته الاجتماعية، والسلوكية في مختلف المواقف، أي أن الشخصية هي مجموع الصفات النفسية المنفردة للشخص، حيث تؤثر هذه الصفات في أنماط سلوكية خاصة ومتنوعة، وذلك بطرق ثابتة نسبيًا في حالات مختلفة[١]، وهي - أي الشخصية - "إنتاج فاعلية العوامل البايولوجية والاجتماعية وتداخلها وما يتأسس على ذلك من مخرجات تشكيل الوجود الذاتي لأي فرد من أفراد المجتمع"[٢] فيكتنف وجود الشخصية وتأسيسها مجمل العناصر البايولوجية، والصحية، والنفسية، والبيئية، والثقافية، والاجتماعية التي تصبح حاضنة لتكوين تلك الشخصية

(١) ينظر: مدخل إلى علم النفس المعاصر، د/مصطفى عشوي، ط٢، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص٢٤١.

(٢) اليد والبراعم دراسات في أدب الطفل، د/علي حداد، ط١، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ص٢١.

وإنضاجها فتعكس تلك العناصر وتمظهراتها في الوجود المعرفي والثقافي التي تمثله في سلوكياتها، وأنماط تعبيرها عن وجودها الاجتماعي[1].

يعد ابن شهاب من الشعراء الرواد في الوطن العربي الذين برزوا بمواقفهم المشهورة التي جعلتهم في الريادة، فنحن نجد أنه قد تضافرت مقومات عدة أسست لشخصيته ثقافيًا واستطاعت أن تؤثر في سلوكياته العامة وتصرفاته، مما انعكس في أرائه ومواقفه من القضايا السياسية، والاجتماعية، والدينية في عصره ومرحلته، إن هذه المقومات التي أسست لثقافته، لتدلل على مستوى المعرفة التي توفر عليها فكان أديبًا، وعالمًا، ومفكرًا، وسياسيًا، وفقيهًا، حاول أن يكتب في كل جوانب المعرفة وأن يقدم لنا رؤيته فيها، فانعكس ذلك في شعره وبما أضفى عليه ملامح ميزته عن الشعراء المعاصرين له، وأعطته الريادة الأدبية في اليمن بوصفه رأس المدرسة الشعرية فيها وباعث نهضتها ولقد شملت هذه المقومات المؤسسة لشخصيته معرفيًا : نسبه، والمحيط العلمي والفكري (البيئة)، والتراث والمرحلة الزمنية التي عاشها في حضرموت، والارتحال والغربة.

أ- نسبه :

للأسرة العلوية في حضرموت مكانتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية التي استطاعت من خلالها أن تثبت أقدامها فيها، فهي تنتسب للبيت النبوي الطاهر مما أكسبهم احترام أهل حضرموت وتقديرهم عامة، وهو ماهيأ لهم امتيازات خاصة، فنظروا إلى أنفسهم على أنهم أعلى طبقة في المجتمع نتيجة لما اكتسبوه من علم وجاه ومال فأصبحت لهم قيادة المجتمع روحيًا،

(١) المصدر السابق، ص٢٣.

واجتماعيًا، وسياسيًا، وكان ابن شهاب ينتمي لهذه الأسرة، فكان لهذا الانتماء دوره في تشكيل شخصيته وتأسيسها، فوسمها بسمات كالحدة والغضب في كثير من القضايا التي يدافع فيها عن قناعاته الخاصة، والتي برزت في شعره بوضوح، فهو يتكئ على النسب في فخره بنفسه وأهل بيته[١]، وكذلك في محاججة الخصوم والرد عليهم[٢]، كما يتطرق كذلك في الهجاء القائم على التعصب وتفضيل جنس على آخر[٣]، وهو يتكيء على هذا النسب الشريف ويعطيه بعدًا دينيًا عامًا ولا يفتأ يوظف النصوص الدينية والتاريخية ليثبت من خلالها أن ما يقوله هو الصواب، بيد أنه في نثره وكتبه يتصف بالهدوء والإنصاف فلا نجد تلك الحدة التي تبرز جلية في شعره.

ب- المحيط العلمي والفكري (البيئة) :

لعل البيئة هي المنبع الأساس الذي يزود الفرد بالمعرفة، كما أن لها دورًا مهمًا في توجيه ميوله ورغباته، ولقد نشأ ابن شهاب في بيئة علمية وأدبية راسخة الجذور فهو من مدينة تريم التي تحتل مكانة مرموقة فهي مركز للعلم بما فيها من العلماء والشخصيات الاجتماعية البارزة والمشهورة. وكان لهذه البيئة العلمية أثرها في تزويده بالمعرفة والثقافة وتوجيه ميوله ورغباته إذ تلقى تعليمه فيها على يد شيوخها وعلمائها الأفاضل[٤]، من أبرزهم مفتي الديار الحضرمية (عبدالرحمن بن محمد المشهور) المتوفى بتريم في ١٥صفر سنة ١٣٢٠هـ فلقد أضاف إلى الفتوى الإمامة، وكان بطلاً شجاعًا يباشر

(١) ينظر: الديوان، ص٥٣ وص١٥٤. (٢) المصدر نفسه، ص١٣٧.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٠ وص٩٧.
(٤) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٤٩.

إبطال الباطل بنفسه، ولا يخاف في الله لومة لائم[١]، ومن علمائها وأدبائها (حسن بن علوي بن شهاب) كان عالمًا وشاعرًا فصيحًا، له رسالة مشهورة أسماها (نحلة الوطن) ينتقد فيها بعض الأوضاع، كما أن له رسالة أخرى أسماها (الرقية الشافية) كتبها لخلاف فكري مع أبي بكر بن شهاب، وتوفي بتريم سنة **١٣٣٢**هـ[٢].

لقد كان المحيط العلمي والفكري في تريم هو الذي زود ابن شهاب بالعلوم التقليدية السائدة في عصره كعلوم الدين، واللغة، والأدب، وهي تعد في عصره العلوم الرئيسة التي تدرس من خلال الكتاتيب التي تعلّم الناشئة، ومن أشهرها مدرسة باغريب التي تخرج فيها عدد من العلماء في تريم[٣] فلقد تعلّم القراءة والكتابة هناك، كما حفظ القرآن الكريم وأصول الفقه، ثم انتقل بعدها إلى مرحلة التلقي من حلقات العلم المنتشرة في المساجد والأربطة، ولقد نشأ نشأة محافظة على العادات والتقاليد، كما أن لأسرته العلوية التي كان لها السيادة في المجتمع لعلمها ونسبها وما تلقاه من احترام وتقدير من عموم الشعب دورًا كبيرًا في توجيهه إلى معالي الأمور منذ الصغر، غير أننا نجد لديه استعدادًا فطريًا أهّله لأن يعلو بثقافته فوق الوسط الذي نشأ فيه بالإضافة إلى جده، وذكائه، وبعد نظره، ونبوغه المبكر، مما جعله يدرك مالا يناله أقرانه من المعرفة[٤].

وقد تعلق ابن شهاب بتلك البيئة حتى ليلاحظ أنه كثيرًا ما تغنى بهذه

---

(١) ينظر: معجم بلدان حضرموت، ص٥١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٥١٣. (٣) المصدر نفسه، ص٥٢٤.
(٤) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٩.

المدينة الفاضلة في شعره[١].

جـ- التراث :

واستقى ابن شهاب من التراث مجمل العلوم الدينية، والأدبية، واللغوية، والتاريخية، من خلال التلقي والقراءة والاطلاع والتي أمدته بذخيرة كبيرة من المعلومات والمعارف، وهذا ما نجده مبثوثًا في كتبه ومؤلفاته[٢]،مما يعطينا صورة واضحة لثقافة ابن شهاب الشاملة وقد طبق العلوم النحوية، والبلاغية، والأدبية في شرحه، أما شعره فإن من يطلع عليه يرى أنه قد تشبع بكمٍ كبير من العلوم، مما يدل على مستوى الثقافة المتنوعة التي تزود بها، والتزامه بخط القدامى والسير على منوالهم، وذلك لا يأتي في النص الشعري إلّا لخدمة الغرض الذي يطرقه، والفكرة التي يريد إيصالها، وهو ما نلاحظه في كثير من قصائده[٣] التي تمتاز بشمولها المعرفي وصياغتها الأدبية المحكمة.

ولعل أول نواحي تأثره بالتراث في شعره مانجده من تأثير القرآن الكريم وعلوم الدين، حيث نلمح هذا التأثير واضحًا في كثرة النقل والاقتباس من القرآن الكريم مما يعطيننا دلاله على تأثره بالأسلوب القرآني[٤]، وتأثره أيضًا بالحديث النبوي في كثير من نصوصه التي يدافع فيها عن آرائه ومعتقداته، ويحاجج بها خصومه[٥]. وللتصوف دوره أيضًا في تكوين مقومات التأسيس

(١) ينظر: الديوان، ص٤٢.
(٢) ينظر: فتوحات الباعث، ص٥ وص٢٥٩.
(٣) ينظر الديوان، ص٢٠ وما بعدها: قصيدته في مدح الرسول ﷺ.
(٤) المصدر نفسه: الصفحات ٤١، ١٥٠، ١٠٠.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٥.

الثقافي لشخصيته والتي برزت في شعره[١] كما أننا نجد للتاريخ حصته بين هذه المقومات التراثية فهو يلم بأيام العرب وسيرهم في الجاهلية وكذلك قصصهم[٢]. أما التاريخ الإسلامي فيذكر أيام المسلمين وحروبهم مع المشركين ويذكر الهجرة النبوية ويذكر الوقائع التي حدثت بين آل البيت وخصومهم من الطوائف[٣]، وهذا النقل للتاريخ وأحداثه وما نلمحه من عاطفة جياشة دليل على تأثره بالتاريخ، واستلهامه لإبراز أفكاره. كما أن للأدب العربي أثره في التأسيس الثقافي لشخصيته فهو يعد أحد المنابع التي أمدته بثروة ضخمة من النصوص النثرية والشعرية. وفي سيرته ما يدل على ضخامة حفظه وسعة علمه بأشعار العرب[٤] كما أننا نجد كثيرًا من الشواهد التي تعطينا فكرة بينة عن تأثره بشعراء العربية القدامى واطلاعه الواسع على أدب العرب القديم[٥]، ولم تقتصر ثقافته التراثية بما مر بل لقد كان عالمًا متبحرًا في علوم كثيرة كاللغة، والنحو، والمنطق، وغيرها[٦].

د- المرحلة الزمنية التي عاشها في حضرموت :

شهدت الفترة الزمنية التي عاشها ابن شهاب في حضرموت - على الرغم من كونها تعد فترة بداية النهوض نحو التطور والتقدم - اتفاقيات الحماية والوصاية التي فرضها المحتل البريطاني على سلاطينها، كما برزت

---

(١) المصدر السابق، ص٥٩.
(٢) المصدر نفسه الصفحات ١٢٤، ١٥٥، ٢٢٢.
(٣) الديوان، الصفحات ٣٠، ٣٦.
(٤) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي: ص٤٥٧، قصته مع سلطان زنجبار والتي تدل على ذكائه وعلمه.
(٥) ينظر: الديوان، ص٢٢ وص٣٨، ص٦٦.
(٦) المصدر نفسه، الصفحات ٥٩، ١٣٠، ٧٣.

فيها كثرة الخلافات والحروب بين السلطنة القعيطية، والكثيرية، وقد كان وعيه لما يحدث في تلك الصراعات حاضرًا، بما جعل له دورًا مهمًا في صلابة عوده، وصقل شخصيته المستقلة الطموحة الرافضة للخضوع والإذلال، فهو يجاهر بمعارضته لاتفاقيات الحماية بين بريطانيا وحكام حضرموت التي تصبح من خلالها محمية بريطانية وقاعدة حربية ضد الأتراك ورفض ما عرض من مال وجاه وسلطة[١]، وهو يوحي لنا بموقفه القائم على الولاء للحاكم المسلم، الأمر الذي جعله يعاني من أذى الحساد والأضداد، وكان جلّه بإيعاز من الحكومة البريطانية لموقفه منها[٢]، لكنه لم يرضخ ولم يستسلم، وتعد الفترة التي عاشها الشاعر في حضرموت فترة جعلته يتبوأ مكانة مرموقة إذ إنه كان مسموع الكلمة مهاب الجانب، نتيجة لما قام به من جهد كبير في حل بعض الخلافات بين السلطنتين القعيطية، والكثيرية، كالذي فعله بعد استيلاء القوات القعيطية على قرية (النويدرة) الواقعة في جانب تريم الشمالي عام **١٢٩٢**هـ[٣]. ولقد فرضت شخصيته التي تأسست هناك أن يكون له شأن كبير في كثير من الأمور الدينية والأفكار التي صرّح بها وعارض من خلالها القناعات الراسخة في المجتمع الحضرمي[٤]. وذلك كله يعطينا فكرة عن بعض السمات التي ميزت شخصيته وتكوينه الثقافي.

ويمكن القول إن ابن شهاب قد تأثر أيضًا بالنهضة الإحيائية والبعث في الوطن العربي مبكرًا، أي في بدايتها نتيجة لعدد من العوامل الفاعلة، فهناك العامل الزمني وتطور الحياة نفسها، وما حدث من تطور علمي كالمواصلات،

---

(١) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٢.
(٢) ينظر: رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥١.
(٣) ينظر: معجم بلدان حضرموت، ص٤٥٩. (٤) المصدر نفسه، ص٤١٥.

والطباعة، والصحافة، وشهرة الحركات الأدبية بالبلاد العربية، وتأثيرها في سيرة الآداب في الوطن العربي، وإطلاع الأدباء هنا في حضرموت على ما ينشر في مصر، والأقطار العربية، وما يصدر عن شعراء العربية، وعن دعاة إنقاذ الدين، فكان المثقفون في حضرموت يلتهمون بشغف[1]ما يرد إليهم.

هـ- الارتحال والغربة :

لم يقتصر التأسيس الثقافي لشخصية ابن شهاب على ما مرّ ذكره، وإنّما كان تواقًا إلى التزود بكل ألوان المعرفة الإنسانية في جميع العلوم، لذلك نجده قد تنقل وارتحل كثيرًا إلى بلدان عدة منها ما كان داخل اليمن، كعدن، ولحج، والحديدة، وماكان خارجها، كالحجاز، ومصر، والشام، وتركيا، وشرق أفريقيا، وسنغافورة، وإندونيسيا، ليستقر به المقام في حيدرأباد الدكن بالهند، إذ مكث فيها ما يقارب العقدين من عمره، ولا شك في أن هذه الرحلات الكثيرة، والمتنوعة، قد أفادت الشاعر وفتحت ثقافته وزودته بكثير من المعارف والأفكار التي لم تعرفها حضرموت في ذلك العصر نتيجة لالتزامها، ومحافظتها، وعدم انفتاحها على ما يفد عليها من الخارج، لذلك لم تتأثر كثيرًا به عكس تلك المدن والبلدان التي زارها والتي شهدت تطورًا كبيرًا في شتى مناحي الحياة، وهي تطلع على حضارات الأمم الأخرى، وخاصة الغرب، وتستفيد من منجزات ذلك العصر، لقد استطاع ابن شهاب أن يتزود بكثير من المعارف والعلوم من خلال هذه الرحلات، مما ساعد على تنوع ثقافته، لتشمل الجوانب النظرية، والتطبيقية، ومنها على سبيل المثال علم الهندسة الذي برع فيه، حتى إنه

(١) ينظر: الحركة الأدبية في حضرموت، ص ١٢٢.

صمم وأشرف على بناء مسجد المحضار ومنارته، تلك المئذنة التي تقف شامخة عملاقة في سماء الغناء، والتي تمثل إبداع الإنسان اليمني ومهارته، وفنه الرفيع[١]، ومما يلاحظ أيضًا أنه قد زود المكتبة اليمنية بكثير من تآليفه التي شملت علومًا عدة.

ولقد كان لهذا الاغتراب أثره في شعره، فنجده يستخدم ألفاظًا جديدة لم يستخدمها الشعراء من قبله، والتي بدأت تظهر في تلك الأيام كالشعب، والتمدن، والرقي[٢]، وغيرها "فهو يكاد يكون أول شاعر في شبه الجزيرة العربية ترد في شعره لفظة الشعب"[٣] لقد كان الاغتراب هو النافذة التي أطل منها ابن شهاب على كثير من الأحداث وتفاعل معها، كما أن لاستقراره في الهند وما تميزت به طبيعتها وتلك البيئة التي تتعدد فيها الديانات، والأعراف، والقوميات، وانفتاحها على العالم الخارجي؛ دوره في تطور تشكيل القصيدة عنده مما أعطاها كثيرًا من السلاسة ورقة الأسلوب.

لقد تنوعت مقومات التأسيس المعرفي لشخصية ابن شهاب وهي بهذا التنوع قد أثرت ثقافته كثيرًا فجعلتها شاملة ومتنوعة استوعبت كثيرًا من العلوم والمعارف، ولكنه في سماته العامة لم يكن ميالاً كثيرًا إلى الظهور بمظهر العالم الكبير، فلقد كان في الأعم الأغلب متواضعًا، يبحث عن الحق أينما كان ولا يتردد لحظة في الرجوع عن رأيه وموافقة المخالف إذا رأى الحق معه. غير أننا نلمح نوعًا من الحدة والتهور في كثير من شعره ضد مخالفيه، وهو يظهر لما جبل عليه الشعر من سيطرة العاطفة وتقديمها على

(١) ينظر: رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥١.
(٢) ينظر: الديوان، ص١٣٦. (٣) رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٧٢.

العقل، ومما نلاحظه على هذه المقومات أنها لم تجرف ابن شهاب نحو التجديد جرفًا وإنما ظل وفيًا للخط التقليدي في الشعر العربي التزم به ومضى عليه مع جنوح للتجديد لديه.

٥- مكانته الأدبية :

أثنى كل من ترجم لابن شهاب على مكانته الأدبية والعلمية بوصفه باعث إشعاعات الإحياء في الشعر اليمني الحديث، و"رأس المدرسة الشعرية في اليمن كلها في زمانه"[(١)]، كما عدّ "زعيم الانقلاب الشعري بحضرموت"[(٢)]، ويذهب أحد الباحثين إلى أنه "أستاذ المدرسة الشعرية والأدبية والعلمية ليس في حضرموت وحدها ولا في اليمن وحدها... وإنمّا هو شاعر الجزيرة العربية بأسرها كما يتجلى ذلك إذا قارنّا بين أشعاره وأشعار زملائه من الشعراء في الجزيرة وهو إلى ذلك في طليعة زعمائها، وعلمائها، ومفكريها، والمصلحين الاجتماعيين فيها"[(٣)]، لقد جعلت هذه المكانة الأدبية التي حازها ابن شهاب أحد الباحثين يفضل شعره على شعر حافظ إبراهيم معللاً حكمه بقوله : "إن بريق شعر حافظ إبراهيم يطغى على شعر ابن شهاب، لكنه من جانب قوة الطبع والوجدان المتأجج، فابن شهاب أرسخ قدمًا"[(٤)]. إن هذه المكانة التي حازها ابن شهاب نتيجة لما قام به من محاولات جادة "لتخليص الأدب من الصناعة البديعية ومن

---

(١) شعراء اليمن المعاصرون، هلال ناجي، ط١، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٢٢٥.

(٢) الحركة الأدبية في حضرموت، ص١٣٤. (٣) أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٤٩.

(٤) ألوان من الأدب الحضرمي، حسن عبدالرحمن السقاف، مجلة الحكمة، ع ٢٩، السنة الرابعة، ١٩٧٤م، ص٧٥.

الألاعيب اللفظية وحاول أن يخرج به عن مفاهيمه الصوفية وأغراضه التقليدية، فعمد إلى ترقيق أساليبه، ومعانيه، وأنداه من جفافه، وجدد في مضمونه"[١]، حيث نجده قد ارتقى بفن الكتابة الشعرية عاليًا وانتشلها من وهدة الركاكة والضعف والعضل المعنوي فكان بحق حامل لواء النهضة الشعرية والأدبية لا في حضرموت فحسب، بل في القطر اليماني الكبير بأسره[٢]، ولما قام به أيضًا من دور كبير في نهضة الشعر الحضرمي، وتطوره، وخروجه إلى العالم الفسيح، إذ إنه "كان يحاكي في شعره فحول الشعراء الكبار في عصور الأدب الزاهية، وكان دوره في هذه النهضة الشعرية كدور البارودي في مصر، حيث كان الشعراء الحضارم يعجبون به ويترسمون خطاه"[٣]، هذه الريادة الشعرية لابن شهاب استطاعت أن تخرج الشعر الحضرمي وأن تجدد في أغراضه، ومعانيه، وفي أسلوبه، وألفاظه، ولقد كان شعره يرد إلى حضرموت فيقع له من الاستحسان من قبل نقاد الشعر، وكذلك الشعراء مما يدعوهم إلى الثناء عليه وعلى شعره[٤]. أما أثره في شعراء المرحلة بعده فإنه يبدو جليًا في كثير من الشعر الحضرمي المتأخر، ولقد اعترف ابن عبيد الله "بأن ما يوجد على شعره من مسحة الإجادة إنما هي بفضله لأنه يطيل النظر في شعره ويتمنى أن يصل إلى مثله"[٥]، كما نجد تأثيره أيضًا على الشعراء الحضارم الشباب الذين قاموا فيما بعد بدور كبير في نهضة الشعر في حضرموت من خلال التجديد في

(١) علي أحمد باكثير: حياته وشعره الوطني والإسلامي، ص٢٢.
(٢) رائد النهضة الشعرية في اليمن: ص٥٧.
(٣) علي أحمد باكثير حياته وشعره الوطني والإسلامي، ص٢٥-٢٦.
(٤) ينظر: معجم بلدان حضرموت، ص٤٨٣. (٥) المصدر نفسه، ص٤٨٣.

الشكل والمضمون، كعبدالله بلخير، وعلي أحمد باكثير وصالح الحامد[١]

إن هذا الإجماع على مكانة ابن شهاب الأدبية والعلمية تتخللها بعض الآراء التي تأخذ موقفًا مغايرًا، فيذهب بعضهم إلى القول إن ابن شهاب على الرغم من كونه يمثل "نقطة التحول الشعري عند نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين فهو يمثل اكتمال مرحلة وتهدمها في آن واحد"[٢]، فلقد عاد للموروث وحاكى قوالبه وهيئاته وموضوعاته إلا أنه استنفد جزءًا من شاعريته حين جعل كثيرًا من قصائده ميزانًا للبراعة اللغوية والأحاجي والألغاز والتصنع اللغوي[٣]، التي استهلكها الشعراء في العصر المملوكي والعثماني كما أنه "لم يخرج عن التقليد الشكلي للقصيدة العربية التقليدية"[٤]، بينما يذهب باحث آخر إلى أن شعر ابن شهاب تقليدي المعجم والتراكيب والصور فهو يكرر المعاني القديمة، فيشد الرحال، ويعتذر عن تأخر رحلته إلى آخر هذه المعاني. ويرى أن صاحبها إنما يتكلفها من دون أن يعبر عن أحاسيسه الوجدانية وانفعالاته الذاتية[٥] كما أنه يحاول فقط محاكاة الشعر العربي القديم معتمدًا على ذاكرته لا موهبته الشعرية. فهو شعر لا يمثل البيئة التي عاشها الشاعر، والتي قيل فيها هذا الشعر، كما أنه ليس أكثر من صناعة لفظية خالية من مقدمات الفن الشعري والإبداع

(١) ينظر: علي أحمد باكثير حياته وشعره الوطني والإسلامي،ص ٢٤.
(٢) تطور الصورة الفنية في شعر اليمن الحديث (١٩١٨- ١٩٧٢م)، عبد المطلب جبر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ص٣٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٤.
(٤) التحديث في الشعر اليمني الحديث (١٩٠٠- ١٩٥٥م) ص٨٧.
(٥) ينظر: عبدالله البردوني شاعرًا دراسة موضوعية وفنية، عبدالرحمن عرفان، رسالة ماجستير، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ص٨.

الحقيقي[١] .إن هذه الأحكام التي صدرت في مكانة ابن شهاب الشعرية تتسم بالتسرع ومجافاة الحقيقة ونتجت عن دراسة غير متعمقة في شعره، فالناقد يجب عليه قبل إصدار الحكم أن يدرس المنجز الشعري للشاعر مع البيئة التي عاشها، ولئن كانت "شاعرية ابن شهاب التي نراها أحيانًا تسرف بالاهتمام بتلك القوالب المعقدة وتلتزم ما لا يلزم فإنها لا تحمل اللفظ فوق طاقته ولا تتكلف المعاني إطلاقًا"[٢]، وهو إذ يظهر تفننه في استعمال البيان البديع إنّما يستجيب لدواعي عصره ويجاري من خلاله أهله ليبزهم في الصناعة حينما وجدهم يتفننون في ضروبها[٣]، ونحن نعلم أن الشاعر قد قضى ما يقارب العقدين من حياته في حيدرأباد الدكن استطاع أن يتأثر بما كان عليه الأدب العربي الذي يكتب هناك والقائم على الصناعة اللفظية والبديع والتفنن فيها ليس في الآداب فقط وإنما في كافة العلوم والذي اتصف بها علماء ذلك البلد في عصره[٤]. وهذه الصنعة التي ظهرت في بعض شعره لم تجعله يتكلف معانيه بل إن من مميزات شعره الانسجام وصفاء الديباجة وجمال الأسلوب العربي مع رقة المعاني وتخير الألفاظ السلسة التي تجعل القارئ يطل على القافية من أول كلمة من البيت فضلاً عمّا ينماز به شعره من عاطفة حية نابضة ورقة وسهولة تتأثر به النفوس[٥]. وشعر الصنعة والبديع، هو الإبداع بلغته العربية في ذلك العصر وهو نوع من التجديد الشعري اقتضته تلك المرحلة.

---

(١) ينظر: المصدر السابق، ص١٤.
(٢) رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥٨. (٣) المصدر نفسه، ص٥٩.
(٤) ينظر: الصنعة الأدبية العربية في شبة القارة الهندية، د/ محمود المصري، مجلة منار الإسلام العدد الخامس، نوفمبر ١٩٩٠م، ص١١٤ وما بعدها.
(٥) ينظر: رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٧٥، وينظر مصدره.

ونرى أن مجمل شعر ابن شهاب بعد حذف شعر الصنعة منه يعطينا فكرة واضحة عن مكانته وما أبدعه ولكن ما يجب أن نقف عنده هو محاكاته للشعر العربي القديم معتمدًا على ذاكرته لا موهبته الشعرية فهو كلام "لا يغض من قدر ابن شهاب ومكانته ولا يجحد له فضل تجديده النسبي في الأدب الحضرمي وتلقيحه بروح الأدب الحي الذي لم يتشربها بكل معانيها من قبل"[(١)]. ولا شك في أنه عاش في عصر البارودي وشوقي وحافظ والرصافي والزهاوي وغيرهم وهؤلاء الشعراء لا يجوز لنا غمط حقهم وجحد أثرهم في الشعر العربي وحسبهم إن لم يكونوا مجددين أنهم كانوا حلقة اتصال للشعر بين القديم والجديد[(٢)]. وتأثر الشاعر بتراثه الشعري القديم لا يخرجه عن الموهبة الشعرية فهو يتفاعل معه ويضيف إليه، أما اتهامه بأنه يتكلف معاني شعره ولا يمثل بيئته التي عاشها فهذا كلام نرى أنه بعيد عن النقد الأدبي الحق، الذي يدرس سمات النص ثم يصدر الأحكام، فهل يريد الناقد من ابن شهاب أن يصف مخترعات العصر وهو قد حج وسافر على الناقة التي اتخذها الشاعر القديم قبله وسيلة مواصلات متاحة أوصلته إلى القبر النبوي؟ فهل يتجاهل الشاعر هذه الرحلة ومشاقها ولا يذكرها!، علمًا أن ابن شهاب وصف أيضا رحلته في البحر في إحدى قصائده[(٣)].

كما تجاهل بعض نقاد الأدب ومؤرخيه في اليمن ابن شهاب ودوره في حركة الإحياء والبعث والنهضة في اليمن كالذي نجده عند الشاعر عبدالله البردوني في كتابه (رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه) وهو لم يتجاهل

(١) المصدر السابق، ص٧٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٧٥.
(٣) ينظر: الديوان ص١٣٥.

ابن شهاب فقط وإنّما كل شعراء الجنوب اليمني، بل نجده لم يتطرق فيه لبعض الشعراء الجنوبيين المعاصرين له، الذين استطاعوا أن يبدعوا في الشعر اليمني الحديث ولعل ذلك متصل بمقدار من محدودية الاطلاع على شعر ابن شهاب وغيره من شعراء تلك الفترات التي تحدث عنها، والجهل أيضًا بالفترة الزمنية التي عاشوا فيها، وهو ما وقع فيه البردوني على الرغم من مكانته الأدبية في اليمن نستنتج ذلك مثلاً حين يتحدث عن تشيع ابن شهاب معللاً إياه بالتراجع الثقافي إلى ما قبل عهد الأتراك، لأنه من وجهة نظره كان شاعرًا معاصرًا... وكان يناضل الفكر الشيعي بحرارة (دعبل) وعصبية (الشريف الرضي) مع أنه من ناشئة القرن العشرين الذي غيرته حربان عالميتان ومئات الهزات النفسية والفكرية[1]. وفات البردوني أن ابن شهاب من شعراء أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إذ توفى في **٢٩** ديسمبر **١٩٢٢**م وبذا فهو لم يدرك الحرب العالمية الثانية.

إن مكانة ابن شهاب الشعرية تترسخ جذورها من ذلك المنجز الشعري الذي خلفه لنا والذي يوحي بشاعريته ودوره في بعث النهضة في اليمن والجزيرة العربية، وهذا لا يعني أن كل شعره قد ارتقى عاليًا فالتجربة الشعرية غالبًا ما تتخللها حالة من الركود، أو التراجع مثلما ترتفع محلقة في لحظات الإبداع لتصنع منجزها المتميز.

٦- آراؤه ومواقفه :

لشخصيه ابن شهاب سماتها الثقافية التي تمنحها وجودها المهم في مرحلتها الزمنية التي ظهرت فيها، كما أن لها أبعادها الفكرية ومواقفها من

(١) ينظر: قضايا يمنية، ص٢١٩.

كثير من القضايا العامة التي عاصرها الشاعر، وأدلى فيها بدلوه، مبينًا موقفه وعارضًا رأيه فيها. فلقد انمازت شخصيته بأنها غير منعزلة عن الأحداث التي جرت في عصره، بل أنه تفاعل معها وشارك فيها بإبداء ما يراه صحيحًا وتميزت هذه الآراء والمواقف بقوة الطرح، وصدق العاطفة، إذ صدرت عن قناعات راسخة لدى الشاعر، من خلال الاستفادة من مقومات ثقافته التي تنوعت وتعددت، فجعلته يتبوأ مكانة مرموقة في مجتمعه الحضرمي قبل اغترابه وأيضًا المجتمع الجديد الذي قضى فيه مرحلة لا بأس بها من عمره.

إن ما يميزه كشخصية اجتماعية هي مشاركته في كثير من القضايا التي عاصرها والتي كان له الدور المشهود فيها، وكان في آرائه التي يعرضها ويدافع عنها ينطلق من منطلق ديني فيحشد كثيرًا من الأدلة والحجج والبراهين النقلية والعقلية التي تؤيد مواقفه وهذه السمة الدينية التي تظهر كثيرًا نتيجة لتبحره في علوم الدين كالقرآن والحديث والفقه وأصولها فضلاً عمّا كتبه من علوم ومعارف أخرى، ويبدو أن ذلك كله منطلق من قناعة مترسخة عند ابن شهاب بأنه قد بلغ درجة الاجتهاد[1]، فهو يرى أن من الواجب عليه أن يبين موقفه من هذه القضايا التي كانت مطروحة في عصره وتهم أمته، وما شهدته من صراع حاد بين الطوائف الإسلامية قديمًا وحديثًا، وهو في معالجته لهذه القضايا إنّما يعكس ما كان سائدًا في عصره وبيئته التي عاش فيها[2]، ومن الآراء التي تستوقفنا عندها هي مفهوم الشعر عنده إذ يرى أحد الباحثين أنه ليس عنده "مفهوم للشعر يمكن الاتكاء عليه لمعرفة وظيفة الشعر وخاصية

(١) ينظر الديون، ص٨١، فهو يرى أن الواجب هو تقليد الرسول ﷺ.
(٢) لمعرفة كثير من آرائه ومواقفه ينظر: الديوان، ص٩٧، ص١٩٣، ص ٢٣٣.

البناء الفني للقصيدة"[١]، وهو رأي وإن كان يقرب إلى الحقيقة إلا أنه حكم، فمفهوم الشعر عند ابن شهاب لم يخرج عن مفهومه العام في التراث النقدي والأدبي العربي ليساير في ذلك مانجده عند شعراء الإحياء. ويمكن أن ندلل على صحة ما نذهب إليه بقصيدته البائية[٢]، التي نستشف منها نظرة ابن شهاب للشعر وكيف يكون وهو ما ذهب إليه الباحث الذي عقب على كلامه السابق بقوله "ولكن قصائد الديوان تصلح وثيقة للاحتجاج بها في الإشارة إلى تصوره الذي يمكن أن ينعكس في بناء القصيدة لديه وهو البناء الذي لم يخرج عما اختطه الشاعر العربي القديم وترسخ بالتنظير النقدي له"[٣]. وهو ما يؤيده ابن شهاب نفسه عندما أبدى رأيه في شاعرية حافظ إبراهيم وإعجابه بشعره[٤]. إذ نفهم من الأبيات التي حكم لها بالجمال والإبداع الفني أنها تقوم على الجمع بين المضمون والشكل فهي تدخل في غرض المديح وتتوسل الإيقاع الداخلي بنية ترتكز عليها.

٧- آثاره وإصلاحاته :

أثرى ابن شهاب المكتبة اليمنية في عصره بكتب قيمة وفي جميع العلوم، كالعقيدة، والفقه والهندسة والحساب والمنطق والبديع والأنساب وهي مؤلفات تصل إلى الثلاثين[٥]، غير أن عوادي الزمن قد ذهبت بأكثرها،

---

(١) تطور الصورة الفنية في شعر اليمن الحديث (١٩١٨-١٩٧٢م) ص٣٥.
(٢) ينظر الديوان، ص٩٣.
(٣) تطور الصورة الفنية في شعر اليمن الحديث، ص٣٥.
(٤) ينظر: معجم بلدان حضرموت، ص٤٨٩.
(٥) ينظر: لمحة عن شاعر اليمن المجهول أبي بكر بن شهاب، الحسين بن محمد الهدار، مكتبة المهاجر، اليمن ١٩٩٢م، ص٨٠.

ولم يتم طبعها ثانية ففقدت، وهذا جانب من الإهمال الذي وقع لعطاء ابن شهاب الأدبي والعلمي ولكن ما بقي منها محفوظ يمكن له أن يعطينا فكرة عن ثقافة ابن شهاب الموسوعية الشاملة، ومن هذه الكتب، (إقامة الحجة على التقي ابن حجة[1][2]. ويذكر انتقادات على ابن حجة في شرح شواهد البديعية أي بديعية التقي ابن حجة في البديع، و(إسعاف الطلاب ببيان مساحة السطوح وما تتوقف عليه من الحساب)[3] وهو في الهندسة، و(فتوحات الباعث بشرح تقرير المباحث)[4]. ويحتوي على علم الميراث وفيه دلاله على سعة علم ابن شهاب و(تحفة المحقق بشرح نظام المنطق)[5]. وهو شرح لكتابه (نظام المنطق) طبع بالدكن - الهند، سنة ١٣٣١هـ[6]، و(الترياق النافع بإيضاح وتكميل مسائل جمع الجوامع)[7]. وفيه يتحدث عن علم أصول الدين والفقه، و(نوافح الدرر الجوري بشرح عقيدة الباجوري[8][9]. وهو كتاب في العقيدة

---

(١) هو الشيخ تقي الدين أبو بكر علي الحموي المعروف بابن حجة من مؤلفاته (خزانة الأدب وغاية الإرب) يشرح فيه بديعيته التي أنشأها في مدح الرسول ﷺ. ينظر: خزانة الأدب ابن حجة الحموي شرح عصام شعيتو، ط١، دار مكتبة الهلال. بيروت، ١٩٨٧م.

(٢) ط ١، مطبعة نخبة الأخيار، الهند ١٣٠٥هـ. (٣) طبع عام ١٣٠٩م.

(٤) ط١، مطبعة دائر المعارف النظامية، حيدر أباد الدكن، ١٣١٧هـ.

(٥) ط١، مطبعة المنار، مصر، القاهرة، ١٣٣٠هـ.

(٦) مصادر الفكر الإسلامي، عبدالله بن محمد الحبشي، إصدار المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص٥٨٩.

(٧) مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣١٨هـ.

(٨) برهان الدين إبراهيم الباجوري، من علماء الأزهر، مؤلف حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد. ينظر: حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م)، ص٣.

(٩) طبع مطبعة فخر نظامي، دت.

يشرح فيه ابن شهاب عقيدة الباجوري، (العقود اللؤلؤية في أسانيد العلوية) مطبوع سنة ١٣٠٣هـ، مخطوط بالآصفية ١٣٣ متفرقات.[١] وهو كتاب في الأنساب، وكتاب (الشهاب الثاقب على السبَّاب الكاذب) طبع في الهند.[٢] وكتاب (المقصود بطلب تعريف العقود)[٣]. وكتاب (ذريعة الناهض في الفرائض) طبع.[٤] وكتاب (تذكير الإخوان في وداع شهر رمضان) طبع سنة ١٣١٣هـ.[٥] وكتاب (سلالة آل أبي علوي) طبع.[٦] وكتاب (نزهة الألباب في رياض الأنساب)[٧]. وكتاب (رشفة الصادي من بحر فضائل بني النبي الهادي) طبع في القاهرة سنة ١٣٠٣هـ.[٨] وكتاب (رفع الخبط عن مسألة الضغط) طبع في حيدر أباد سنة ١٣٢٠هـ، في ٣١ صفحة.[٩] وكتاب (وجوب الحمّية عن مضار الرقية) طبع في سنغافورة، سنة ١٣٢٨هـ[١٠]، وهو كتاب رد على كتاب (الرقية الشافية من مضار النصائح الكافية) للعلامة حسن بن علي بن شهاب، الذي رد به على كتاب (النصائح الكافية لمن يتولى معاوية) لمحمد بن عقيل بن يحيى، الذي سب فيه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وقد اتسم أسلوبه في تلك المؤلفات بالسلاسة والسهولة مع البعد عن التكلف وخلوها من البديع التي اشتهرت به مؤلفات ذلك العصر مقدمًا أفكاره بمستوى متميز من النضج والابتعاد عن الحدة في مناقشة المخالفين.

---

(١) ينظر: مصادر الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٩٢.
(٣) المصدر نفسه، ص١٠٣.
(٤) المصدر نفسه، ص٣١٨.
(٥) المصدر نفسه، ص٤٦٤.
(٦) المصدر نفسه، ص٥٤٧.
(٧) المصدر نفسه، ص٥٤٧.
(٨) المصدر نفسه، ص٥٤٧.
(٩) المصدر نفسه، ص٥٧٤.
(١٠) المصدر نفسه، ص١٧٠.

أما مواقفه في خدمة مجتمعه فإنه لم يكن منعزلاً منطويًا على نفسه بل كان متفاعلاً ومشاركًا في القضايا الكبرى المصيرية نتيجة لما جبل عليه من نفسٍ خيّرة، وهمّة عالية وطموح كبير، مما جعله مسموع الكلمة في وطنه وبين أفراد شعبه، فكان له دوره الواضح إذ قام بأعمال إنسانية كبيرة في حضرموت وخارجها ولعل من أبرزها سعيه للصلح بين السلطانين القعيطي والكثيري بعد استيلاء القوات القعيطية على قرية (النويدرة)[١]. وقد أشار إلى هذه الحادثة في شعره مفتخرًا بها[٢]. وله إلى جانب هذا الموقف مواقف مشابهة مع زعماء القبائل والمناصب ومع سلاطين حضرموت، أثبت فيها شجاعته وذكاءه بإطفاء نار الفتن فيما بينهم، وكان غالبًا ما يقف إلى صف المعتدى عليه حتى يأخذ الحق له من المعتدي مما جعل الطرف الآخر يناصبه العداء ويتربص به محاولاً اغتياله[٣]، وله أعمال إصلاحية أخرى نافعة في التعمير والزراعة بحضرموت ومن أشهرها، التصميم الهندسي الرائع والمبدع لمسجد المحضار ومئذنته والمشاركة في بنائها[٤] مما يعطينا دلالة على ذكائه وسعة جهده وتعدد مواهبه. فضلاً عن مواقفه الإنسانية النبيلة فقد كان يدعو إلى الثورة الاجتماعية الإسلامية الصحيحة القائمة على العدالة الاجتماعية ليقف في الوقت نفسه بوجه السطوة المتنفذة للإقطاع المستغل لخيرات الأمة[٥] وتكدس الأموال والثروات عند فئة قليلة على حساب

(١) ينظر: معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، ص ٤٥٩-٤٦٠.
(٢) ينظر: الديوان، ص١٢٢.
(٣) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٢.
(٤) ينظر: رائد النهضة الشعرية في اليمن، ص٥٤، وينظر مصدره.
(٥) ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي، ص٤٥٢.

الأغلبية المحتاجة، وقد سبب له ذلك مضايقات كبيرة دفع ثمنها وكانت سببًا من أسباب هجرته عن وطنه.